« اللهم أجعل هذا البلد آمنا »
سرى لا يطلع عليه مخلوق

« رسالة أعدت ؛ بمناسبة اجتماع كبار البصاصين فى أنحاء الأرض وأركان الدنيا الأربعة فى القاهرة أم الدنيا ؛ وبستان الكون ، لتدارس الأحوال ؛ والنظر فى الأساليب المتبعة ؛ وما يستجد منها ؛ ولتبادل المعرفة والفوائد أعد فى ديوان بصاص السلطنة المملوكية ؛ وتلاه الشهاب الأعظم زكريا بن راضى عفا الله عنه ، وعرفه طرقه ؛ ومسالكه »

القاهرة

جمادى الأول ٩٢٢ هـ

الزبني بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى « إن ربك لبالمرصاد »

قال تعالى « وأنَّ الله علام الغيوب »

قال تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً ، أو ليصمت » .

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه فعل وإن أقللت منه نفع » .

« أما بعد » :

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا فى أركان الدنيا أبداً ، وهذا حدث جلل وعظيم ، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتما ستلقى فيه بين الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئاً ثقيلا وحملا فادحاً ، وأننا عانينا ، وقاسينا ، وضحينا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى ، جل شأنه ، وما نهدف من وراء لقائنا هذا ، إلا استحداث طرق جديدة ، وسبل غير معروفة ، تعيننا على مهامنا الصعبة ،

وهذا يساعدنا فى الوصول إلى لب الحقيقة ، وسوف يسهل الأمر لمن يجىء بعدنا ..

والله المعين ..

* نشاء بحكم عملنا ، وما يتعلق به ، أن يحيطنا وضع غريب ، وهذا يتطلب من البصاص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها ، حتى البصاص الصغير الذى يتعقب رجلا أو امرأة ، أو ينقل كل ما قيل فى مجلس أن يكون صاحب فطنة وذكاء ، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس آمنا ، إنما لابد من عيشه محبوباً ربما بدا هذا صعباً ، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس وخباياهم — وهذا مكروه — أن يكون محبوباً ؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم؟ لكن لنلاحظ أولا أمراً هاماً ..

مهمة البصاص — بلا لف أو دوران — إقامة العدل بين الناس ، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس ، وحيث أن كل أمر فى الدنيا لا يتفق عليه اثنان ، مثلا ، هذه القاعة التى نجلس فيها ، البعيدة عن أصوات الدنيا ، وضجيج أهلها ، لا نراها جميعاً فى هيئة واحدة ، مثلا كبير بصاصى لندن الأعظم يراني واقفاً هنا ، وكبير بصاصى اليمن يراني من الجانب الأيسر ، أما كبير بصاصى السودان المبجل فيراني من مكان آخر بصورة مغايرة ، حتى الترجمة يرونني بهيئات مختلفة وينقلون إلى حضراتكم حديثى ليس بنفس الألفاظ ، إنما المعنى ، ومن هنا تصبح لى أكثر من صورة ، والحقيقة أن وضعى واحد لم يتغير ، وحديثى يتغير على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو ، وهكذا .. ما نراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلماً وجرماً .

البصاص لا يعمل من أجل نفسه قط ، الغرض الأول والأخير ، إرضاء سبحانه وتعالى ، ثم يأتى السلطان بعد هذا ، ثم أركان الدولة ، ومادام البصاص مؤمناً بالله ، بربه ، مسلماً كان أو مسيحياً ، أو بوذياً ، ويؤمن بمولاه ، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها ، ورفع الأذى عنها ..

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه ، لم يخلق هذا قط ، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهدا من قومه ، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسواز الطائف فألهب الهجير باطن قدميه . وسال دمه ، ألم يتآمروا على قتله ؟ ألم يحاربوه وتأكل واحدة منهم كبد عمه حمزة نيئاً ، ومن قبل ألم يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك ، ودقوا المسامير فى جسده وصلبوه أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين ألقوه فى البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب ، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بآلام ومواجع ، وهذا حال الأولياء الصالحين ، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه ، بما فيهم من خوارق واختلافات ، وبالتالى . فإن حاكم أى بلدة من بلدان الله ، لابد أن يصبح مكروها من جانب آخر ، والحاكم الأمثل من نجح فى ترغيب الأغلبية فيه ، وتقليل أعدائه ، إذن ، لابد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون ، ويتحينون الفرصة للانقضاض وهؤلاء إما من الخارج ، أى مخالفين للجنس ، أو الملة ، وفى هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم ومهنة البصاص هنا مقدسة ، ولا يختلف فى هذا اثنان وإما أعداء فى الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة ، وبين عامة الناس .

* الدرس العظيم المستفاد من التواريخ ، أنه فى حالة اندلاع الفتنة فلابد من حياد البصاص . البصاص يعمل للعدل وحده ، ورمز العدل هو كرسى السلطنة ، كرسى السلطنة ذاته .

* إذا تآمر بعض الصفوة ، أو جماعات من العامة على الكرسى ، فلابد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسى ، هذا واجب ، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة ، أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا إلى تقاليد التملك والسيطرة ، ماهو موقف البصاص هنا ؟؟ نقول مادام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسى الأصلى ، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول ، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .